

فتافيت.. وخوازيق.. وعفاريت*

سألته : الأخبار؟

قال: لا شيء. أخبار كل يوم. مفاوضات العراق وإيران متعثرة. كل واحد منهما مصر على رأيه، وإسرائيل مازلت فى وحشيتها مع الفلسطينيين، وشامير عاد إرهابيا كما بدأ. إنه يعتقد أن من حق إسرائيل أن تبيد الفلسطينيين، والأمريكيون فى لعبهم الغريب مع الروس. ريجان يريد أن يختم رياسته ملاكا. والفيضانات فى كل بلاد الدنيا من ثلاثة شهور كنا نموت من قلة المطر، اليوم نموت غرقا من مياه الأمطار فى بنجلاديش وفى الصين والمكسيك. والطائرات تسقط فى كل مكان، والناس يموتون بالآلاف.. إلى آخر هذه الأخبار المملة التى يصعدون بها رؤوسنا كل يوم.

- كل هذا ونقول لا شيء؟

- بلى. هذه أمور لا تنتهى يا أختى، لأن الناس يريدونها كذلك. والا فقل لى: ألم ينص قرار هيئة الأمم رقم ٥٨٩ على وقوف الحرب بين إيران والعراق على أن تعود الحدود بين البلدين كما كانت قبل الحرب؟ فما معنى الكلام اليوم فى شط العرب، وكيف يقول كل من الجانبين أن من حقه أن يمنع الآخر من دخول شط العرب؟

- لأن كلا منهما يا أختى اقنع شعبه بأنه انتصر فى الحرب.

وكيف يكون هناك انتصار دون كسب؟

- ما ذنبنا نحن يا أختى.. لقد هلكتنا من هذه الخلافات والحروب والمطامع. ما ذنبنا والله.

* نشرت هذه المقالة فى ١٨ سبتمبر ١٩٨٨ م.

- ذنبنا إننا فتافيت. كلنا فتافيت. أنا فتفوتة وأنت فتفوته، وكل الناس الذين تراهم يروحون ويغدون أمامك فتافيت. والفتافيت هم المساكين الذين يحملون عبء هذه الدنيا.

- لا يا أخى.. أنا لست فتفوتة.

- إذن فأنت فتفوت.

- ولا فتفوت.. أنا دكتور.. أنا طبيب..

- آه.. نسيت يا أخى أن أجرة كشفك أصبحت ثلاثين جنيها. ولا يمكن أن يكون إنسان يتقاضى ثلاثين جنيها كشفًا فتفوته أو فتفوتا.. أنت خازوق.

- خازوق؟ كيف تقول إننى خازوق؟

- يا عزيزى إن الخازوق لا يحس إنه خازوق.. إن الذى يحس بذلك هو الذى يدفع الثلاثين جنيها.

- إننى أعالجه بها.

- ليس مؤكدا.. المؤكد الوحيد هو أنك تقبض الجنيهات وتضيفها إلى حسابك.. والمريض فى الغالب لا يشفى. لابد أن يذهب إلى خازوق آخر ويدفع ثلاثين جنيها أخرى. إنكم يا أخى لا يمكن أن تكونوا فتافيت. أما نحن فإننا نعتبر أنفسنا سعداء لأننا فتافيت، نحن نخدم الدنيا ونأخذ أجرنا العادل. نحن لا نتهب ولا نسرق. نحن لا نظلم ولا نندس أيدينا فى محافظ الآخرين. أن الفتفتة يا عزيزى فيها شىء من خفة الظل. إن الفتفوت منا يشعر إنه مسروق منهوب ويجد سعادة فى ذلك. ولولانا نحن الفتافيت لخربت الدنيا. أما أنتم فخوازيق.

- لا تقل إننا خوازيق.

- بل خوازيق ونصف. وهل تظن يا عزيزى أن الخازوق يحسن أنه خازوق؟ أبدا! إن يحس بالخازوق هو الذى يلبسه ويطلع من عينه.

لقد كنت فى الإسكندرية هذا الصيف ، وكنت أجد نفسى أحيانا وسط ناس يقال أنهم أصحاب ملايين ، ولكنهم يتصرفون تصرف خوازيق. ليس على أحد منهم منظر فتفتوت أى إنسان ، وأولادهم مشروعات خوازيق. ملابسهم غالبية الثمن. ولكنهم يبدون فيها وكأنهم متسولون. لقد طفت بالشاطئ من المنتزة إلى رأس التين. لم أجد واحدا من أولاده الخوازيق هؤلاء يركب يختا غالبا كالذى يركبه الأغنياء وأولادهم فى مياه نيس ، وكان ، ومونت كارلو ، وشواطئ ميامى ، وكاليفورنيا وينافس بعضهم بعضا ويعطون أوروبا وأمريكا هيئة الغنى والبطولة والشجاعة والرجولة ، لأن خوازيقنا فعلا يملكون المال ، ولكنهم فقراء. اقصد أن قلوبهم فقيرة وإنهم خوازيق وأولاد خوازيق. بعضهم يتصرف تصرف أغنياء حقا. بعضهم أنشأ مستشفيات - وبني مساجد وساهم فى مستشفيات هؤلاء تجدهم دائما متواضعين بنطاء ، والواحد منهم يشعر براحة ضمير لأنه استعمل الزكاة فيما شرعها الله له : استعمله فى التخفيف عن آلام المساكين. فى عمل الخير. أما الآخرون فتجدهم متلطمعين كالذباب على شواطئ المنتزه والواحد منهم أمامه زجاجة الويسكى أو الجن أو البيرة ، لكى يعرف الناس أنه خازوق. وبناتهم خازوقات واحدة منهن كانت تجتهد فى أن تعرض على عيون الخلق ما منحها الله من جمال قليل. إنها تجلس بالمايو وتشرب الويسكى وتنهض وتروح وتجنئ فى دلال ثقيل.

إن الفتافيت يا عزيزى هم الذين يبنون مجتمعا هذا. إنهم مكافحون طيبون يؤمنون بالفضيلة وينفرون من الفساد. أما الخوازيق فلا يهتمهم إلا المال الذى فى الجيب. كيف أتى؟ كيف تجمع؟ لا يهم.. المهم أنهم أصحاب عقاريت ، أقصد ملايين. واحد منهم كان يركن سيارته المرسيدس فى مكان ممنوع. وأتى الشاويش وأخذه غرامة. وعندما عاد ورأى علامة الغرامة غضب لأنه بصفته خازوقا لا ينبغى أن يدفع غرامات. فذهب إلى الشاويش وشمته. وواحد منا نحن الفتافيت لم يعجبه هذا الكلام. فتصدى للدفاع عن الشاويش. ودخل فى معركة مع ابن الخازوق وضربه وألقى به

على الأرض وكانت لمة وهيصة وأتى الضابط ووجد أن الحق مع الفتوتة فانضم إليه وأمر بالقبض على الخازوق وانقلبت الدنيا لأنه لا يجوز القبض على الخوازيق، ولكن الضابط أصر، لأنه كان فتوتة مثلنا. وفي القسم انضم وكيل النيابة إلى الفتوتة ولم يحفل لأى وساطة.

لم أر فى الدنيا أثقل من أصحاب الملايين فى بلدنا. إن معظمهم لصوص ولا يستحون، ونصابون لا يخشون.

منفوخون على الغاضى ويفسدون المجتمع. ويرون أنهم سادتنا.

وبعضنا يحاول أن يقوى هذه الفكرة فى رؤوسهم ورؤوسنا، وانظر مثلا إلى مسلسل يعرضونه الآن. إن بطل المسلسل منادى سيارات. ومنادى السيارات فى حقيقته متسول. إن عمله فى موقف السيارات ليس وظيفة فليس له راتب. إن يمد لك يده دائما لأنه متسول لا موظف. لأنه الموظف يتحمل مسئولية. أما منادى السيارات فأى مسئولية يحمل؟ وأنت إذا جرى لسيارتك شىء رأيتته يقف كاللوح كأنه لا دخل له فى الموضوع. ولكن الرواية تريد أن تقول أنه بطل. لقد ربى أولاده من حرفة التسول هذه. رباهم واشترى شقة وأصبح فى زمرة الأغنياء، ولكنه ظل يحمل طعامه إلى بيته فى ورق جرائد، وظل يجلس إلى المائدة دون أن يغسل يديه. لا سكين ولا طبق والأكل دائما بالأصابع القذرة. وأولاده واحد منهم طبيب أسنان، وهو لم يشعر بأن أباه متسول إلا عندما رفضت أم البنات أن تزوجه ابنتها. لو لم ترفض السيدة لما أحس أنه ابن متسول. والسيدة على حق لأن ابنة الطبيب لا يجوز أن يتزوج ابن متسول ولكن مؤلف الرواية - وهو دون شك يفكر بعقلية خازوق يقف إلى جانب منادى السيارات ويريد أن يصوره بطلا، معقول هذا يا ناس؟

إننا نحن القتافيت نرفض ذلك. إننا نبني الدنيا ولا نحب من يهدمها. من الناحية الأخرى نرى سيدة كانت متزوجة من منادى سيارات وأنجبت

منه أولادا ثلاثة. ثم انحرفت وتاجرت فى الأغذية الفاسدة وكسبت المال وسكنت الفيلا وصار لها الخدم والحشم، وهنا صرخت: أولادى!
 إنهم ليسوا أولادك يا سيدتى فإن الأمومة ليست مجرد الإنجاب وأنت لست أما، وليس لك الحق فى أن يكون لك أولاد لا أطباء ولا عفاريت، أنت عدوة من أعداء الفتايت أنت عدوة من أعداء المجتمع . وأنت لن تخدمينا لا أنت ولا المؤلف الذى يفكر بعقلية المتسول مثلك.



كان بلدنا هذا - مصر - أسعد بكثير عندما كان أهله كلهم فتايت يتصرفون على أنهم فتايت، حتى الباشوات كانوا فتايت، كان فيهم جهل وعنق، ولكنهم كانوا فى أعماقهم ناسا طبيين ومواطنين صالحين، لم يفسد حالنا إلا عندما دخل مجتمعنا الخوازيق والعفاريت، ونحن من جانبنا نخضع اليوم لعقلية الخوازيق الذين يسرقون وينهبون ويكذبون ويخدعون ويزعمون أنهم ناس محترمون.. فى آخر مرة كنت فى الحجاز كنت فى فندق يسمى القندرة، ورأيت نفسى وسط أربعة رجال ونسوانهم، كلهم خوازيق وعفاريت، أتوا إلى الحجاز لكى يكذبوا على الله سبحانه. كل مال معهم كان مسروقا، وواحد منهم كان يبكى خشية من الله فيما يزعم.

وكل متر أرض يملكونه كان منهوبا، كلهم كانوا تجار سوق سوداء. واحد منهم تولى بالأغلبية السياسية إدارة شركة أقطان. وسرق ونهب، وانتقل من صعلوك إلى شيء لا يصدق العقل، كان جالسا فى هيئة رجل تقى نادم بين يدي الله. كنت أنظر إليه وأقول:

معقول يا ناس؟ هذا المفلس بالأمس يصبح اليوم شيئا هائلا، يملك عمارة فى الزمالك وحسابات فى أكثر من بنكين؟ من أين أتته هذه الأموال؟ والدولة أين هو منه؟

بعد أن عدنا من الحجاز أقرأ في الصحف أنه مقدم للمحاكمة يتهمونه بسرقة بضعة ملايين، ويطلبون حبسه، وهو يلجأ إلى ضبع من ضباع المحاماة ويزعم أنه كسب المال بعمله. كيف يا إنسان وأنت كنت من خمسة عشر عاما فتفوته مثلنا تسعى لرزقك؟ إنها السياسة! السياسة حشرتك في الوظائف الكبرى، وأنت شمרת عن ساعد الشر ولم تذكر الدين أو الأخلاق، ونهبت قدر ما استطعت، وتنعمت واستمتعت، وحسبت نفسك إنسانا عظيما وشخصية لها مكانها، وأنت ترانى انتظر تكسبا في الطريق فتقف وتقول أتفضل، وأنا لا أتفضل لأننى أولا أعرف أن مالك هذا كله مسروق، ثم إننى أخشى أن يصيبنى الرصاص إذا أنا جلست إلى جوارك لأن أعدائك كثيرون وهم لك بالمرصاد فى كل زاوية، وكلنا نعرف أنك لا شيء، كلنا نعرف إنك خازوق وعفريت، وكل لقمة عيش تدخل جوفك حرام. وكل شربة ماء حرام وكلك خازوق ملعون.

وبعض مفكرينا يؤيدونك ويكتبون مسلسلات يجعلون أبطالها عفاريت مثلك. هذه الأيام نرى مسلسلات بطله إنسان عاطل كل ميزته أنه فيما يزعمون خفيف الظل، وهذا الشيطان يسعى للزواج من بنت طيبة غنية، وغرضه الوحيد الحصول على مالها. الرواية كلها تافهة. وقد كتبت قبل ذلك مائة مرة إنها حكاية البنت الطيبة التى تنسى أنها امرأة فتهمل حياتها وتنصرف إلى عمل جاد هو دراسة الحشرات. المؤلف لم يختر التخصص فى الحشرات إلا لأنه ظن أن هذا عمل مضحك إذ كيف تتخصص بنت فى دراسة الحشرات؟ المهم أن هذا اللقيل الرذل يحاول أن يخدع البنت وفجأة تنبها سيدة طيبة إلى أنها بنت جميلة وأنها تستطيع أن تكون فاتنة إذا اعتنت بنفسها، وتعتنى بنفسها وتصبح فاتنة حقا. وصاحبنا تدور من حوله الدنيا. ويشعر أنه سقط فى الحضيض وهو فى الواقع لا يستحق إلا الحضيض فهو إنسان جاهل تافه. لا يعرف إلا الفكاهات السخيفة ويحاول أن يعجب البنت وكان ينبغى إلا يوفق ولكن

المؤلف خازوق. ولهذا فهو يقف إلى جانب الخازوق مثله. والرواية تصيح تمجيذا لإنسان تافه لا يستحق إلا الاحتقار.

هذا ليس تأليفا ولا فكريا أنه نصب واحتيال، ومثل هذا المؤلف كان من الممكن أن يكون فتفتوة طيبة مثلنا، ويخدم المجتمع بفنه، ولكنه لا يريد خدمة المجتمع، أو قل لا يعرف كيف يخدمه.

لأن خدمة المجتمع تضحية وقناعة وفضيلة، ومن العسير جدا أن يكون الإنسان مضحيا وقنوعا وفاضلا. وأنا شخصا ينهينى الناس ولا أغضب، ولى عند ناس كثيرين نقود وأطالبهم بها ولا يدفعون ولا أغضب لأننى أعرف أنه ليس من السهل عليهم أن يكونوا فتافيت. وأسهل جدا أن يكونوا خوازيق أو عفاريت، لأن الأمر يتطلب هنا قلة الذمة والنصب والاحتيال. وصدقنى أن ذلك أسهل من التصرف الفاضل الذى يتطلب منك قوة نفس وعزيمة وفضيلة وواحد من هؤلاء، أكل علىّ مالا. ثم احتاج إلى أن أقوم له بعمل، ووعد أن يدفع مبلغ ثلاثة آلاف جنيه ودفع ألفا. ولأننى رأيت فى العمل خدمة عامة فقد قبلت وقمت بالعمل ودفع ألفا أخرى وأكل الباقي. وصدقنى إننى لم أحزن ولم أغضب وقلت لنفسى أنه مسكين ولا يمكن ألا أن يكون هكذا. ثم أصابته نوبة قلب، ورقد فى الفراش ولم أزره لأنه لا يستحق وانفق فى العلاج فوق العشرة آلاف جنيه، وذهب إلى إنجلترا وكنت هناك فمررت عليه فى المستشفى، وقلت له إننى غير آسف على ما أصابك، فإن الله سبحانه وتعالى له أساليبه فى أن يجعل مثلك يدفع ما عليه، وأنت أنفقت فى مصر وهنا أضعاف ما أكلت منى، فتصنع أنه لا يسمع وسلمت عليه بنفس طيبة ودعوت له بالشفاء من صميم قلبى والله وخرجت، واتصل بى بالتليفون فى الفندق وقال: يا فلان لك عندى ألف جنيه! قلت: لى عندك ألف جنيه من الصفقة الأخيرة. وستائة قبل ذلك، ولكننى لا أطلبك بشىء، ويكفى إنك ناشر كتب وهذه فى ذاتها فضيلة. قال: أريد أن أبعث إليك بألف جنيه إنجليزية. قلت:

لا داعى لذلك يا أخصى، لقد عرف الله سبحانه كيف يعاقبك، وهذا يكفينى. لأننى فى الحقيقة أغنى منك رغم أننى اسكن فى فندق درجة ثانية وصدقنى أنك فقير رغم كل شىء وكان الله فى عونك على نفسك.

إننا - نحن المفكرين والكتاب والمؤلفين - ننسى أحيانا أننا معلمون. إننا نكتب لى نسلى الناس، ولكن التسلية ليست خدمة قومية إنها خداع ولهذا فإن كتابتنا فى أحيان كثيرة تضر الناس وتفسد المجتمع، وانظر مثلا إلى صور الناس الذين يغتنون من التهريب ومن المخدرات كيف ينتقلون من الفقر إلى مظهر غريب من الغنى: المكتب الفاخر.. السكرتيرة.. التليفونات والسيارة والخدم ووراء ذلك كله رجل أو امرأة لا يعرف أى منهما كيف يرتدى ملابسه، والحكاية تنتهى دائما بأن البوليس يكتشف السرقة، والخازوق يدخل السجن، ولكن دخول السجن فى هذه الحالة يصورونه لنا فى صورة زائفة وكل الإجراءات خطأ، والمؤلف لا يعرف القانون ولا إجراءات القانون. إنه يتظاهر بأنه مع القانون، ولكنه فى الحقيقة يؤذى القانون، ويؤذى الناس. وواحد منهم يقول أن رجلا قبضوا عليه لمجرد اتهامه بسرقة مال من دولاى، هذا خطأ طبعا ولكنه خطأ خازوق يريد أن يبدو فى نظرنا أنه ففتوته.

هذا كله فساد وإفساد. ونحن الفتافيت نعرف ذلك جيدا ونقول لأولئك الناس إنكم هلافيت وخوازيق. نحن أيها الناس لسنا فى أمريكا، هناك تجد الاجرام إجراما حقا.

والسدس دائما فى اليد، وقتل إنسان أهون من قتل ذبابة، صدقنى أن مؤلفى تلك الروايات الأمريكية أشرف من مؤلفى رواياتنا التى أشرنا إليها، إنهم على الأقل ليسوا منافقين. إنهم هلافيت وعفاريت، ولكنهم ليسوا منافقين.

○ ○ يقولون إن بلدنا حافل اليوم باللصوص. معقول ونحن مسئولون عن ذلك لأننا نعامل الخوازيق باحترام. واللص ينبغى أن يعاقب وأنا أرى

أن يده بل رقبته - ينبغي أن تقطع أن القانون الفرنسي الذى نطبقه لم يكتب لنا وهو غير صالح لنا لأن الذى يصلح لنا هو قانون الإسلام..
شريعة الله التى بينها لنا فى القرآن وهى شريعة عادلة وجميلة شريعة
تخدم القتايت مثلئ ومثلئ اذكروا دائما أن الرئيس مبارك قال فى خطابه
الأخير فى ٩ سبتمبر.

إن الصرخات غير المسئولة سترتد لأصحابها.